الجامع الأزهر

لإدارة العامة للثقافة الإسلامية

الموسم الأول للمحاضرات العامة

١٣٧٨ - ١٩٥٩

فكرة الدولة في الإسلام

محاضرة ألقاها

الدكتور مصطفى الحفناوى

عضو مجلس إدارة هيئة قناة السويس

وعضو مجلس كلية الشريعة

بقاعة المحاضرات بالجامع الأزهر

في مساء الثلاثاء { ٢٠ من شوال سنة ١٣٧٨ هـ
{ ٢٨ من إبريل سنة ١٩٥٩ م

مطبعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

فكرة الدولة في الإسلام

محاضرة ألقاها

الدكتور مصطفى الحفناوى

عضو مجلس إدارة قناة السويس وعضو مجلس كلية الشريعة

حضرات السادة :

قامت في الشرق دول عظمى ، وحضارات خالدة كانت ركائزها : الفلسفة والعلوم والفنون والفضائل الإنسانية التي يعتمد عليها رقي الأمم ، وذلك حينما كان الغرب يتعثر في دياجير الجهالة ويتردى في مهاوى الضلال ، وآخر امبراطوريات الشرق عهداً وأعزها شأنا وأقواها أثراً في سير الفلك العالمي ، دولة المسلمين ، يوم أن كانت تحكم نصف الكرة الأرضية ، وتترامى أطرافها من بحار الهند والمحيط الهادى إلى المحيط الأطلسي ، وحينما رفرفت رايتها فوق قارات العالم القديم ، وتسلمت مفاتيح البوابات والمداخل البحرية المؤدية إلى أغنى بقاع الأرض على الإطلاق . وعلى الرغم من الشدائد والقلاقل التي سجلها التاريخ لهذه الدولة الكبرى في عصور مختلفة ، قدر لها أن تعيش بضعة قرون ، وكان ممكنا أن تستمر حياتها كذلك ، إلى أن تشرق الأرض كلها بنور ربها ، فلا يبقى فوقها ملحد أو ضال ؛ ولكن سبق في علم الله ، أن يتغلب الشر على الخير في أكثر من معركة ، وأن يخرج الغرب من كهفه : دويلاته وإماراته وفلول ممالكه التي هوت من قبل ، فتتجمع الدويلات والإمارات والخرائب والأنقاض بعامل واحد ، هو الحقد على دولة التوحيد وحدة الطمع في ثراء الشرق وكنوزه وطيبات أرضه ، فكانت الحروب الصليبية التي سلخت من عمر البشرية قرابة ثلاثة قرون ، تبدأ في القرن الحادى عشر بعد ميلاد

السيد المسيح عليه السلام ، وباءت تلك الحملات بخيبة الأمل ، ولكن العوامل التى تحركها استمرت إلى الوقت الذى نعيش فيه ، وسوف تستمر فى صور متعددة ووثنيات متجددة ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وفى هذه الحلقة من حلقات الموسم الثقافى الذى دعا إليه فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، طلب إلى أن أبين فكرة الدولة فى الإسلام ، وسوف أكتفى بعرض سريع لتطور الحوادث قبلها وللأسس التى قامت عليها هذه الدولة العتيدة . والأهداف والغايات التى تدعو إليها . وموقفها بين القوى الجبارة التى تتنازع السيادة على العالم فى الوقت الذى نعيش فيه .

وقد بانت معالم هذه الدولة ، منذ أن ظهر الإسلام على الشرك فى صحراء الجزيرة العربية ، وطفق الرسول يدعو إلى الدين القيم جهراً ، ويصارع الكفر حتى دخل العرب فى دين الله أفواجا ، وصدق الله وعده ، ونصر عبده وأعز دينه وهزم الأحزاب وحده .

ومنذ عهد الرسول عليه السلام ، لم يقف الإسلام عند حد تطهير الكعبة وما حولها من الأوثان ومحو الضلالة من شبه جزيرة العرب كلها ، بل كان حتما أن تصل دعوة الحق إلى مشارق الأرض ومغاربها ؛ لأن محمداً مبعوث للناس كافة ؛ ولأن الله تبارك وتعالى قد أمره هو والذين معه عصراً بعد عصر ، وجيلا بعد جيل ، أن يحرروا بنى الإنسان من ألوان الشرك والضلال . قال تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ؛ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً . محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما » .

بدأ التجهيز للفتح الإسلامى فى حياة الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، وتم على أيدى خلفائه الراشدين . ولم يستهدف المسلمون فى غزواتهم مآرب اقتصادية

واستغلالية ، كما فعل غيرهم من قبل ومن بعد ، ولكنهم انطلقوا من الصحارى والوهاد ، ورءوسهم على أيديهم ليبلغوا رسالة الله للناس ، فالتوحيد هو حجر الزاوية فى بناء الدولة الإسلامية .

والدعوة لعبادة إله واحد ، لا شريك له فى ملكه قديمة كالدهر ، وقد بعث الله على مر العصور رسله وأنبياءه يبشرون بها ، وفى هذا يقول تبارك وتعالى فى سورة الأنبياء :

« أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

إلا أن هذه الدعوة كانت تتعثر دائما بسبب ما انطوت عليه النفس البشرية من شهوات فانية ، وجهل بحقيقة الحياة وبأن الله لم يخلق الإنس والجن إلا ليعبدوه قال جل شأنه :

« ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون . قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون » .

وقد قص علينا القرآن الكريم ، ما حدث فى عصور مختلفة على أيدى رسل الله وأنبيائه ، وما أصاب الكافرين فكانوا دائما وأبدا هم الأخسرون . وشرح لنا فى آيات محكمات ما كان من أمر بنى إسرائيل ، وكيف بدلوا فى شريعة موسى عليه السلام : « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم ، فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » ذلك أن اليهود وقد عتوا عن أمر ربهم زيفوا وزوروا فى التوراة ، وحاولوا بعد أن استقر بهم المقام فى فلسطين أن يكونوا لأنفسهم وحدة سياسية تعبد « يهوذا » من دون الله ، وادعوا أنهم شعب الله المختار ، فمقتتهم الشعوب الأخرى ، وكان مقت الله أكبر ، فشردوا فى الأرض ، « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » .

وقد غزا الفرس فلسطين فى سنة ٥٣٨ قبل الميلاد وجعلوا بنى إسرائيل منطوين على أنفسهم فى بيت المقدس ، ثم غزاها الإسكندر فى سنة ٣٣١ قبل